من أدب الزراعة

الخـــط الأول ...

لصاحب العزة محمد محمود جلال بك

لثمانية أعوام خلت كنت إذا مررت بناحية معينة من زراعتى أشعر فجأة بشبه صدمة يعقبها شيء من الاشمئزاز ، إذ تقع عينى بين نضرة النبات على بقعة جرداء . وحتى فى الأوقات التى لا تكتسى الأرض بحلة من زرع كنت أرى فى لون التربة معنى من الجدب ولوناً من الإهمال . كنت أراها كالمن يفسد معروف الرجال ، وتجاور هـذه البقعة مقابر « الشيخ عطا » ؛ فكأنما تفصل بين الدنيا والآخرة . وكم آلمنى منظرها ، والفلاح كالفنان يجد أذى فى النشاز ؛ فهـذا يسره اتساق المزروعات مرأى ، وذاك يكره تنافر الألوان ، أو إهمال التنسيق فى ناحية من تمثاله .

وقلت مرة إن إصلاحها يأخذ بيد أهل الدنيا ، ويرفه الجوار لسكان هـذه المقبرة ! . . . كان ذلك سنة ١٩٣٦

ومنذ يومين مررت بها كأى مرور مما يحدث مرتين فى الشهر على الأقل . ولـكن ما أدرى كيف سبح الخيال إلى عام ١٩٣٦ ، ولم رجعت الذاكرة سراعا إلى ما كان ؟!

نظرت فإذا الحقل ضمن زراعة القطن هـذا العام ، وإذا الحقل يمتد فى نظام ونضرة واتساق إلى آخر حدود المقبرة !

تلفت إلى ناظر الزراعة عن يمينى ، وتلفت القلب إلى صفحات تنشر من عمر مضى ، وكادت تشغل الصـحف كل البال ، وتثمر فى طياتها الحاضر . ثم تيقظ العزم وتيقظ الحاضر ؛ فتساءلت : أين القطعة التى عملنا على إصلاحها ؟ قال : هي تلك ! مشيراً بيده : انظر ، لقد أصبحت أخصب ناحية فى زمام القطن . . . المجاور !

وهل زرعت لحسابنا ؟ قال : كيف ! لقد تقاطر الراغبون حين فراغنا من عملية الإصلاح ، وإنى لأذكر كيف كانت مطمح النظر لأول (خط) رسمه المحراث فيها

وفى الشهر الماضى زرت صديقى وأستاذي صاحب الرسالة ، وفى حديثنا أشار بلفظه العذب وأسلوبه الصافى عاتباً علىّ انقطاع كتابتى قائلاً : أهكذا لا شيء من نظمك ولا شيء من نثرك ؟ إنى غاضب حقاً . لم يكن ردى غير اعتذار ووعد بإعادة ما كان بينى وبين الرسالة

ولست أخفى على قراء « الرسـالة » أنى تهيبت العودة إلى ساحتها ، وكل ما فيها رشيق دقيق . تهيبت تهيب من يخشى لأمانته حسن قدره للأمور مع الرغبة فى الوفاء

وقمت فى بكور اليوم إلى مكتبى أسجل هذه السطور القليلة ؛ ويقوى من عزمى ما أعلم من أن الأدب أوسع صدراً وأبر بمن ينسب إليه ، أو يحاول قربه من أن يرده خائباً ، أو أن يطوى عنه ستره

ومنذ سـنة ١٩٣٦ لم أكتب شيئاً ، ومن العجب اتفاق التاريخين .

وما كدت أكتب السطر الأول فى تعليق على ما رأيت حتى ذكرت « الخط الأول » الذى أشار إليه ناظر الزراعة . فالخط الأول فى كل سعى هو أشقه ! أو لم يقبل الزارعون إثر الخط الأول فى الحرث ؟ وإذن فلتقبل معانى الأدب وعظاته ما تم الخط الأول فى المحاولة

ومن أروع ما قرأت حكمة لأبى شرف الأندلسي عنيت بها قديماً ، حتى نقشتها فى رحبة دارى وجعلتها خلف الباب ، لتكون أمامى وأمام أولادى شحذاً للعزم ، متى همّ أحدنا بالخروج . قال أبو شرف : « إذا خرجت من دارك ، فقد قطعت ثلثى الطريق » .

وإذن فالخط الأول . . . هو الخط الأول . . .

(الشيخ عطا) فى ٥ شعبان ١٣٦٣ / ٢٥ يولية ١٩٤٤

محمد محمود جلال